عاصفة على العقاد !..

بقلم الحساني حسن عبد الله

« قيم الاباء ولم تكن يا حق الا أصدقاءك »

(من شعر العقاد)

العقاد رجل الحق . عرفه واخلص له ، وأوتي قدرة هائلة على الذود عنه .

كلمة نقولها ابتداء لان الابتداء بها والانتهاء بسيان ، بل هي ألزم أن تتصدر هذا البحث وكل بحث في العقاد يتوخى الوصول الى نتائج سليمة . وهي كلمة الشعور فيها أكثر من المنطق ، فأنت ترى أننا لم نصل اليها باعمال الفكر في الفروض والبراهين ولكنا قدمناها بين يدي البحث كما يقدم رجل المنطق في استدلاله البديهيات والمسلمات ليخلص منها الى نتائج يتفق عليها الناس . أنقول اذن أن الشعور أداة من أدوات البحث وأن ما يخلص اليه صالح أن يكون من مقدماته ؟ نعم ، ولم لا ؟ أيمكن أن يتجرد الباحث من شعوره ؟ الجواب قطعا بالنفي . وهل من الخير أن استطاع أن يفعل ؟ الجواب بالنفي أيضا ، فليس من الخير اذا بلغ الشعور بنا الحقيقة أن نعطله ، ومن موضوعات البحث ما يضل المنطق في شعابه بغير دليل من الشعور ـ أو يطول به التجواب قبل بلوغ الغاية ، ومن الخير اذن أن يكون لنا عاصم من الضلال يدلنا على الطريق أو يريحنا من بعض العناء . نعم ربما يخدع الشعور، ولكن ربما يخدع المنطق أيضا ، وربما يخدعان معا . وليس ذلك دليلا على عدم صلاحهما والا بطل جهد الانسان من أجل المعرفة . انما يأتيهما العيب من الانسان ، فليس الشعور واحدا عند كل الناس وليس المنطق واحدا كذلك ، ويأتيهما العيب من خفاء بعض الجوانب في الواقع المختبر فقد يبقى جزء منه مجهولا لا يتم الصواب ولا ينتفي الخطأ الا بكشفه .

ولكن كيف نشأ هذا الشعور أو ينشأ بأن العقاد رجل الحق ؟ أعتقد أن قارىء العقاد ـ ان برئت نفسه من الهوى ـ ليس بحاجة الى أكثر من بضعة كتب وقد يكفيه بضع صفحات كي يجد في نفسه هذا الشعور . فاذا اوغل واضاف الى علمه بالكتب علمه بحياة كاتبها أصبح الشعور يقينا لا يتزعزع . ذلك أن القارىء يعرف في صفحات تلك الكتب وفي صفحات تلك الحياة رجلا يغار على الحق ، يفرح اذا أهل ويغضب اذا احتجب ، ويحاوره كأنما يحاور رفيقا يألفه . أيكون هذا الغضب وذلك الفرح وتلك الغيرة باطلا !؟ كلا . ولقد شاه منطق يزعم هذا .

ستقول : وما هو الحق ؟ أليس هو الكلمة التي يزعمها لنفسه كل فرد وكل فريق وكل جيل وكل أمة حتى أصبحت مجرد سوط في يد الضارب وزفرة في فم المضروب ؟ بلى : قد يكون الامر كذلك، ولكنه اعتراض يؤكد ولا ينفي ، فما وجد الحق ليعرفه جميع الناس بلا نزاع. ونزاع الناس متنوع الاسباب ، أقله في سبيل الحق وأغلبه شيره حزازات وأهواء وصغائر لا هم لها الا النصر وان مرغ ألف حق في التراب . هناك حق وهناك باطل . هذه حقيقة بمنزلة البديهيات ، والا كان الوجود كله عبثا .

على أن معرفة الحق لا تعني عدم الخطأ أو نفي احتماله ، فالعقاد رجل كسائر الناس يخطىء ويصيب . نعم يخطىء ويصيب ، ولكن هناك شيئا اخر قبل الخطأ والصواب هو ما نعنيه بمعرفة الحق ـ والخطأ جائز حتى على الانبياء ـ هناك تلك الحقيقة المتغلغلة في طوايا النفس بأن في الوجود حقا يسعى اليه ويكشف عنه في حمية واخلاص . ونصيب العقاد من هذا الايمان عظيم يفرض نفسه فرضا على الشعور . ومتى قر في وجدان القارىء هذا الشعور بأنه بين يدي كاتب يضنيه أن يعرف الحق ويقدمه الى الناس آمن أن يصيبه

بالبلبلة أصحاب الاهواء وما أكثرهم بين خصوم العقاد ، وضن بوقته أن يضيع في اختبار دعاوى باطلة .

رجل الحق . وشاهدنا الاول اعجابه دائما بالاريحية ورجالها وانحاؤه دائما على النفعية ورجالها . وليس عبثا اعجاب المرء وازراؤه لان المعجب انما يجد نفسه أو بعضا من نفسه فيمن يعجب به . فالعقاد اذن أحد أولئك الرجال الذين تحدث عنهم كثيرا ، رجال المبدأ والرأي والعقيدة ، أو رجال الخلق الذين يحكم سلوكهم وازع . ولا يتصور أن يكون هذا الطراز من الناس متجرا برأيه سائرا في ركاب الفساد ابتغاء الكسب . وهو في فكره وسلوكه رجل واحد لا يتصور منه أن يخرج على القيم الفكرية التي اعتز بها أو القيم الخلقية التي أعتز بها . سمعت أحدهم ذات يوم يقول انه رأى العقاد ينحني أمام محمد محمود « باشا » حتى كاد يطأ بجبهته الارض . قلت له : لعلك تريد أن تبالغ في وصف الاحترام . قال « لقد رأيته بعيني رأسي » . وكان الرجل ذا جنجرة توهم نبراتها بالصدق ، والنبرة من أول الاشياء على طوية الانسان ، ولكن قد ينجح بعض الكذابين المطبوعين — أن صح أن يطبع انسان على الكذب — في تطويعها لقول الزور . قلت : ولكنك تعلم أن العقاد تصدى للباشا وهو رئيس وزارة يتهدد الناس بيد « من حديد » فسخر منه وهاجم سلطانه وجبروته ، فهل يستقيم في المنطق أن محاربا من هذا الطراز ينحني تلك الانحناءة ؟ فما زاد على أن كرر كلمته : رأيته بعيني رأسي . قلت : وأنا لا أصدق ما رأيته بعيني رأسك . ومضى زمن على هذا الحديث وأنا مطمئن الى كذب هذه الشهادة حتى قابلت الاستاذ محمود حسن اسماعيل وكان من المتصلين زمنا بمحمد محمود فباحثته في نوع العلاقة بين الباشا والعقاد فقال أن محمد محمود كان يكن للعقاد اجلالا عظيما وكان بينهما احترام متبادل ليس من مظاهره الانحناء .

وشاهد ثان نستنبطه من أقوال الناقدين المتهجمين . ذلك أن القارىء ينظر فيها فلا يجد رأيا جديرا بالمناقشة ، انما هي بضعة اتهامات لا تثبت لحظة أمام ضوء المنطق . ولنضرب مثلا : نشرت مؤسسة فرانكلين كتبا للعقاد وكتب العقاد في مجلة شركة البترول السعودية فالعقاد اذن عميل اميركاني ! ما معنى هذه الكلمة ؟ معناها أننا أمام رجل باع جهده لدولة أجنبية سواء كان راغبا في التمكين لها أو كان لا يعنيه من عمله غير قبض الاجر . معناها أن هذا الرجل يعنيه أمر المال أو خير الدولة الاجنبية قبل أن يعنيه أمر وطنه.ومعناها أن العقاد في هجومه المدمر على الشيوعية — وهذا ما ينبغي أن يفهمه القارىء من وراء السطور — لم يكن صاحب رأي مخلص لرأيه بل كان أجيرا يقول بمقدار ما يقبض . واذن نحن أمام رجل تهبط مكانته الخلقية هبوطا شديدا . فما مقدار الصواب في هذا المعنى ان كان فيه صواب قط ؟ ان كل الاجهزة الثقافية التي تديرها أموال أميركية أو تشترك في ادارتها في بلادنا أو في غير بلادنا تهدف الى نشر قيم الثقافة الغربية والتمكين لها في نفوس الناس . هذا شيء معروف لا خفاء فيه . وهي اذ تحاول تحقيق هذا الغرض تخدم الثقافة الانسانية على وجه العموم وتسهم في تثقيف المواطن العربي . وهذا شيء لا ينكر . وهذه الاجهزة الثقافية على نفعها للقارىء العربي وسيلة هامة من وسائل الدعاية الاميركية لان احترام المواطن العربي لقيم هذه الثقافةربما كان له أثر في مضمار السياسةفي بعض الاحيان.وهذا النوع من الدعاية شائع بين الدول تتقبله حكومات كثيرة لانها لا ترى غضاضة في النشاط الثقافي . اما نتيجته في مضمار السياسة فهي لا تجد لها كبير خطر لان السياسة في كل دولة تخضع لاعتبارات كبرى ، وهي في ايدي رجال مفروض فيهم انهم امناء الامة . وحكومتنا تأخذ بهذا المنطق فهي تعلم ان مؤسسة فرانكلين والجامعة الامريكية والمعونة الامريكية وكل ما لحقته هذه الصفة من قريب او بعيد هو دعاية امريكية ، ولا تجد في هذا مطعنا لانها — كأي حكومة اخرى — لا تتردد في محاربة أي وسيلة من وسائل الدعاية يتحول الغرض منها من اقامة نفوذ ثقافي الى اقامة نفوذ حكومي . وهكذا نرفض المعونة الامريكية ونرسل انتقاداتنا لامريكا يحمله الاثير حتى يخترق البيت الابيض ، ولكننا لا نغلق ابواب الجامعة الامريكية ، وقد نرفض الجامعة ايضا اذا حادت عن غايتها . فالذين يأخذون على العقاد تعاونه مع فرانكلين او كتابته في « قافلة الزيت » انما يأخذون عليه امرا ترضاه الدولة وتسمح به . ولا تثريب على العقاد ولا تثريب على الدولة ما دامت عقيدتنا بخير وما دامت بلادنا بخير . ان حكومتنا لم تسمح لقلم الدعاية الامريكية بمزاولة نشاطه في البلاد لكي يقاطعه الناس او لكي تعم ابناء مصر بضعف الوطنية او ضعف الاخلاق ، بل سمحت له وهي عالمة بما ينطوي عليه من نفع غير هيابة لما يهابه من نصبوا انفسهم اوصياء على الامة ، يريدون لها ولا يريد لها احد غيرهم ، ويفارون عليها كأنما عقها كل بنيها الاهم . ومع هذا لا يجد هؤلاء الفيورون المخلصون الاخلاقيون غضاضة في بيع جهدهم للدعاية السوفياتية ، وكان الحق — لو كان هناك حق — أن يدينوا انفسهم بمنطقهم هم قبل أن يدينوا غيرهم . على ان الدعاية ربما تفيد من الكتاب ولا صلة له بها من قريب او بعيد . فاذا كانت امريكا تهدف بدعايتها الى محاربة الماركسية فهل نعتبر كل كاتب مناهض للماركسية خادما لامريكا ، وهل يأتي علينا حين من الدهر نعتبر فيه طبع القرآن مثلا عملا من اعمال الدعاية الامريكية !؟

هذا مثل من النقد او مثل من التشويش لم نفنده طمعا في الاقناع لان اصحابه — وتهافته ظاهر قريب — قد اذاعوه وهم عالمون بتهافته . ولا رجاء اذن في المناقشة ، انما الرجاء ان يفهم القارىء هذه « الحالة » وهي في كلمات معدودات ، أنكار فضل ذوي الفضل ، وتحقير العظمة اطفاء لنار نجسة يدعونها « الحقد الثوري » تأكل قلوب الصغار ولا يهدأ لها اوار الا بتمريغ كل كرامة وتحين كل فرصة تسنح لزج ذوي الاقدار مع المجرمين ، ولا جريمة لهم غير الامتياز ورفعتهم فوق الصغار الاف الدرجات . اننا اذا لم نعرف لذى الحق حقه فتلك علامة الانحلال ، وآفة في الخلق ما أصابت قوما وكان لهم شأن ، وهي آفة مكمنها في النفوس قديم لان النقص قديم في الانسان . شر ما تواجه به امرءا ان تذكره بنقصه ولو هان ، واروح ما تواجهه به ان تذكر له نقص الاخرين لانه يجد فيه عزاء لا يجده في ذكر الرفعة والعلاء . ومن هنا ينفتح للنفاق وتملق الجماهير باب خالد لا يلجه الا ذوو النفوس الضعيفة . فليس بالحسن اذن ان نعجل الى اتهام الناس بغير تحرج ، ولكن هذه الخلة الذميمة شاعت بيننا ووجدت رفاقها بين أصحاب الاقلام وجماهير القراء . العقاد انجليزي ، العقاد اميركاني ، العقاد سعودي ، العقاد ملكي .. ، لم يبق الا ان يكون اسرائيليا ايضا ! ثم يقرأ الجيل المسكين هذه التخرصات فيجد لها في قرارة نفسه استجابة مرجعها الى الداء القديم . نعم العقاد مأجور : وساق على ساق ، ومكابرة في العينين واستخفاف في الكتفين . ولم لا يكون العقاد مأجورا ؟ أمن المعقول ان يذهب بكل هذا المجد ونبقى نحن جوفا تافهين ! كلا ، لا بد ان نلحقه وصمة تنزل به من عليائه ليكون معنا في الحضيض . وهكذا تبرد نار الحسد ، وتستشرق الآفة حتى تترك فريستها ولا همة ولا طموح .

أهذا هو الجيل الذي نريده ان يصعد ؟

أبهذا الاجتراء والتهاون نريده ان يصعد ؟

كلا ، انه سيصعد ولكن بغير هذا ، سيصعد حين يرفع البصر فيجد امثلة تقتدى ، وحين يديره حوله فيجد الفضلاء من قومه وغير قومه مثار الاعجاب والاعزاز . وسيصعد حين يوقن ان في قرارة الوجود حقا يسعى اليه ويكشف عنه في حمية واخلاص .

***

والان ما خبر هذه العاصفة ؟

اخرج الاستاذ فتحي رضوان كتابا اسمه « عصر ورجال » زعم فيه ان العقاد خدم الانجليز وانه مدح الملك السابق ابتغاء الكسب ، وانه جبان لا يشجع الا اعتمادا على قوة تحميه ، وانه جامد العاطفة ،

وانه وانه .. الى اخر ما زعم . قال هذا فتاقف قوله اناس وتطوعوا بالاضافة اليه فرأينا من واجبنا ان نحقق هذه الدعاوى ، ليس دفاعا عن العقاد فهو عندنا « رجل الحق » ، يصيب ويخطىء وهو رجل الحق ، ولكننا نحققها اختبارا لذلك الشعور الذي اسلفنا ذكره وبرهانا عليه عسى ان يبلغ عند القارىء من الثبوت ما بلغه عندنا .

و « الخانة » في هذا الكتاب تحاول على شدة ظهورها ان تتخفى احيانا ، ولكنها في تخفيها تظهر نفسها اكثر . انظر اليها وهي تعترض على موقف من أجل المواقف في حياة العقاد يوم استدعاه الوفد في صيف سنة ١٩٣٥ الى الاسكندرية ليحاسبه على مهاجمته لوزارة محمد توفيق نسيم ، وهي وزارة كان الوفد على حد تعبير مصطفى النحاس « مبسوطا منها » وكان الانجليز يؤيدونها . زعيم حزب الاغلبية في جانب — وهو من هو في ذلك الحين قوة واقتدارا وسيطرة على الجماهير، وفي جانب اخر كاتب فقير لا ضمان له في عالم من الاطماع المتضاربة والمنافع المتباينة غير ايمانه وثقته بقدرته وعبقريته . وينتهي للحوار بأن يخرج الكاتب الفرد على اكبر احزاب الامة معتدا برأيه رافعا مكانة الفكر والقلم غير عابىء بعداوة السلطان . موقف كما نرى يشرف به كل صاحب قلم ، ولكن الخانة لها رأي اخر فهي في اعماقها تستهول هذا الموقف وتشعر بفرده وفذاذه ، هي لا تعهد في اوساط الناس من يسمو هذا السمو ، وفي الاعماق يدور سؤال يظل حبيسا : لم لم يكن الناس كلهم أوساطا ، ولماذا ينفرد بعض منهم ويبقى بعض فرائس للحالات ؟ ولكن السؤال بالطبع حينما يخرج الى السطح لا بد له أن يتزيى بالمنطق — ولا منطق في الواقع غير منطق « الخانة » . تقول « الخانة » : « لو صحت هذه الرواية لكانت جديرة بأن تضحك ، فزعيم حزب لا يناقش اكبر كتاب هذا الحزب وانما يدخل معه فيما يشبه المناطحة ، فالزعيم يتحدى بسلطة الزعامة والكاتب يقول انه كاتب الشرق بالحق الالهي ، ولست ادري ما هو هذا الشرق الذي يعنيه الكاتب الكبير ، أهو الشرق الادنى أم شرق ايران والهند والصين واليابان الذين لا يقراون للعقاد ولم يسمعوا عنه ، ثم ما هو الحق الالهي الذي يجعل من الكاتب كاتبا للشرق او الغرب » . يعني لا نذكر ايها القارىء هنا دكتاتورية النحاس وصلابة العقاد لان المسألة كلها مناطحة هازلة تنطلق الالفاظ فيها من فم « الطفلين » رعناء لا معنى لها ! وفات « الخانة » انها تفكر وحدها في غرفة مغلقة قانعة بأن تسمع نفسها فقط ، فما من احد يجهل أن كلمة الشرق اذا وردت على لسان العربي فهي تعني الشرق العربي ، نقول « كوكب الشرق » ولا نعني شرق ايران والهند والصين واليابان ، وقد جاء في الكتاب الذي يمثل هذه «الخانة» ذكر لصحيفة « كوكب الشرق » وهي صحيفة — و « الخانة » تعلم — كان يكتب فيها عرب ويقرأها عرب . أما الحق الالهي فهو حق الموهبة التي يمنحها الله لمن يشاء من خلقه .

بهذه العين التي تنكر ضوء الشمس لانها لا تريد أن تراه لا لانها لا تقوى عليه يقرأ الاستاذ فتحي رضوان حياة العقاد وكتبه فلا يجد فيه الا عميلا للانجليز ، مداحا للملك ، ناقلا لثقافة الغرب بلا تمثل ، ليس بشاعر ، وقصته الوحيدة ليست قصة . ولو استقصينا كل الدعاوى لاستغصت هذه المقالة على النشر فلنختر اذن أخطرها :

(١)

العقاد والانجليز :

يرجع اتهام العقاد بأنه خدم الانجليز الى سنة ١٩٣٥ حين نشبت المعركة المشهورة بينه وبين الوفد بسبب هجوم العقاد على وزارة محمد توفيق نسيم التي مالات الانجليز ، وكان مكرم عبيد رجل الوفد الاول في ذلك الحين بعد النحاس هو المتصدي للرد على العقاد فذكر ان العقاد عمل في رقابة الصحف اثناء الحرب العالمية الاولى وكانت تحت اشراف الانجليز . وفند العقاد الدعوى في حينها ثم ها هي ذي تبعث في كتاب فتحي رضوان لتكون وقودا جديدا في افران قوم لم يجدوا من حق القارىء عليهم ان يخاطبوا عقله فاطلقوا تخرصاتهم واثاروا الشبهات يردها قارىء يحترم عقله ويقبلها قارىء يريحه أن يصبح العالم كله مباءة للاقذار . ولكن الحق ينبعث في بعض الضمائر الحية فيكون لاشعاعه أثر بعيد في زلزلة الباطل . من ذلك ما نشره الاستاذ رجاء النقاش في كتابه « ادباء ومواقف » — وكانت بينه وبين العقاد خصومة دفعت به الى ترديد الاتهام — قال « أحب أن أقول كلمة أومن بها للحقيقة والتاريخ ، فالعقاد لم يكن في فكرة من افكاره مأجورا ، ومواقفه الفكرية التي لا يوافقه عليها الاشتراكيون لم تكن لحساب أحد كما قال البعض كثيرا ..واعترف — صادقا مستريح الضمير — انني واحد من الذين اخطأوا في حق العقاد واتهموه بانه كان مأجورا في بعض كتبه ودراساته ، فالعقاد كان كثيرا ما يفرض على الذين يناقشونه عندما يغضب أن يستخدموا ضده كل الاسلحة .. » اني على يقين ان بعض القراء لن ينتهي من قراءة هذه الفقرة حتى يدين كاتبها وينسى شعوره بالاسف . حذار يا هؤلاء انكم بهذا لا تستاءون للخطأ بل تفرحون به .

قنع فتحي رضوان بالشبهات ، واعرض — وهو المحامي القديم — عن الاسانيد والبينات والقرائن . فلننظر ماذا يقول ، ولنبدأ بالحادثة القديمة حادثة اشتغال العقاد رقيبا على الصحافة ، تقول رواية العقاد « تشاء الحوادث أن اشتغل بالرقابة على الصحف وهي من ابغض الاعمال الى نفسي والى فكري ، وشاء هذه الحوادث أن اهنىء نفسي بالخيبة فيها بعد ايام فلم احمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة . كانت لي صداقة ادبية بالمغفور له « جعفر والي باشا » وكيل وزارة الداخلية في ايام الحرب العالمية الاولى وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون احيانا عثمان فهمي بك الذي كان مديرا لاسوان فمديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه لانه لم يحسن أن يشترك في ادارة الخاصة على الطريقة التي يرضاها صاحب الجلالة ، ... وعلم جعفر والي انني ابحث عن عمل في القاهرة لان حالة الكبد عندي لا تسمح بقضاء الصيف

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
● اعطنا حبا	« «	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

في اسوان ، وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية وانهم يكادون ان يحماوه تبعة هذه المشكلة لانه احق الناس ان يعرف كيف يختار للرقابة اناسا من ادباء المصريين يصلحون لها ولا سيئون فهمها ، ... قال : والحيرة في امر هذه الرقابة ان اكثر الرقباء بادارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للافواه والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف في المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم ان صحيفة من الصحف تلعب بالالفاظ لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الغرور وظنوا انهم يغلبون الصحيفة في المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الاشارة اليه . ومن ترخص منهم في السماح بنشر الاخبار التي يحرص عليها الصحفيون فانما يترخص في ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من اجل الصداقة او من اجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا ادري ماذا اصنع وانا الوكيل المصري المفروض فيه انه اقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك ان تؤدي هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغي ان تكون . قلت : انني اقبل العمل في الرقابة ولا غضاضة ما دامت الرقابة من المصالح العامة في ايام الحروب . وبعد ثلاثة ايام جاءني تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركتها للنشر وتحقق لهم اني لم احذفها . وبعد يومين او ثلاثة جاءتني دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام .. فلما دخلت المكتب سألني مستر « هورنبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الي رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية . فقلت بعد اطالة النظر فيها : نعم . فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الاخبار المقلقة التي من هذا القبيل ؟ قلت : انها تباح فيما اطلع عليه من الصحف الانجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو اخطر منها بكثير . فصاح متهكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم اردف قائلا : هل انت من الحزب الوطني ؟ قلت : انا مصري وطني بطبيعة الحال . قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟ فأجبته بكلام فحواه انني لا افهم المقصود بالعطف معهم ، ولكنني لا ابقى في هذا العمل اذا كان يتطلب مني شعورا لا افهمه .. »

فما الذي ينكره الاستاذ فتحي من هذه الحادثة ؟

يقول « الاختلاف بين البريطانيين انفسهم يقع ، فوقوعه بين العقاد وبين هورنبلور لا يزكي العقاد كثيرا ، ولا ينفي عنه ان الانجليز لم يكونوا يتوجسون منه ، بل على العكس كانوا يطمئنون اليه ويودون ان يصلوا أسبابهم بأسبابه . » نعم ، يقع الخلاف بين البريطانيين ويقع بين المصريين ولكنه حين يقع بين المصري المحكوم والبريطاني الحاكم تكون له دلالته . ان السؤال هنا : اما كان يمكن لهذا الخلاف ان لا يقع ؟ فمن ضعف القياس أن يكون الخلاف في حالة كهذه شبيها بالخلاف بين أي انجليزي واي انجليزي . فيم الاباء اذا كان الرجل مأجورا ؟ اما قبول العمل في مثل تلك الاحوال فلا غبار عليه لانه عمل لا يضر بمصلحة الوطن ، وهو اذن عمل وطني ، خير ان يقوم به مخلص للوطن من ان يقوم به من لا يعنيه وطن او اخلاص . يقول العقاد من رده على مكرم سنة ١٩٣٥ « فارقت العمل بعد اسبوع واحد وانا لا اعلم متى تنتهي الحرب ولا اعلم متى اعثر بعمل يكفيني . ولو كنت مأجورا .. لاستطعت ان ابقى سبع سنوات في تلك الوظيفة لا سبعة ايام .. »

وموقف ثان مع الانجليز . يقول الاستاذ فتحي « عاد الانجليز — في شخص يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف يلتمسون العون عند العقاد اذ رشحه يعقوب صروف للسفر الى شبه جزيرة سيناء ليكتب تقريرا صحفيا عن الوضع العسكري هناك ابان الحديث عن حملة تركية تتهيأ لغزو مصر خلال سني الحرب العالمية الاولى ، وقد كان الانجليز في حاجة الى من يبدد آمال المصريين في هذه الحملة . وكان بعض الوطنيين يعقد عليها الآمال . صحيح ان العقاد قد اعتذر رافضا الاخذ بنصيحة الشيخ التفتازاني احد مشايخ الطرق الصوفية في تلك الايام ولكن الدلالة في الترشيح وليست في القبول او الاعتذار ، ولو سافر العقاد وكتب شيئا فيه ممالاة للانجليز لسقط نهائيا ولدخل في زمرة رجال الدعاية البريطانية والعاملين معها جهرة ، ولم يكن في ذلك الحين من يقبل لنفسه هذا الدور الا اولاد المقطم واصحابه وغيرهم من اعوان الانجليز المفضوحين . »

واضح من مساق هذه الرواية انها تصور قبول العقاد لما عرضه الانجليز على انه تبديد لآمال المصريين و « بعض الوطنيين » الذين كانوا يرجون الخير من الحملة التركية . اي ان العقاد ما كان له الا ان يرفض لان الجريمة جريمة كبرى لا يقوم عليها من يخدم الانجليز جهرة اما من يخدمهم « سرا » كالعقاد — هذا الانجليزي غير المفضوح ! — فلا يقبل هذه الفضيحة . والامر أهون من ان يكون تبديدا للامال وطعنا للوطنية . يقول الدكتور هيكل متحدثا عن تلك الحملة التركية « في شهر فبراير سنة ١٩١٥ وصلت قوات تركية الى ضفة قناة السويس الشرقية ، وترامت بذلك انباء تناقلها الناس ولم تشر اليها الصحف . وكان المتشيعون للالمان ولدولة الخلافة يذيعون ان الجيش المقبل عرم لن يستطيع الانجليز صده . وكان اكبر رجاء هؤلاء المتشيعين للالمان ان تثور مصر بالانجليز فيهون ذلك على الجيش التركي ان يتخطى القناة فينضم اليه المصريون فتحل الكارثة بالانجليز . ولكنه تبين ان ما وصل الى القناة من الجيش التركي لم يكن الا عددا قليلا يصاحبه بعض المصريين الذين كانوا في الاستانة ، وان هذا العدد لم يثبت للانجليز ولم يستطع ان يتخطى قناة السويس . » واذن فصارى ما كان يطلبه الانجليز من العقاد ان يذهب الى الجبهة لينقل من اخبارها ما يقطع السبيل على اقاويل انصار الخديوي من المتشيعين للاتراك والالمان ، ومع ذلك لم يقبل العقاد ، لا لان القبول تبديد لآمال المصريين بل لان العقاد ، كان يرى ان الحرب بين عدوين كلاهما عدو لنا . يقول « احب ان اعيد هنا رأيي الذي اعلنته في اثناء الحرب العالمية الثانية ولم استطع ان اعلنه في اثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد كان من رأيي في الحزبين ان تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفورة السلاح والاستقلال والا تتولاه — بداهة — في ظل الحماية والاحتلال . فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له : انني لا أكره ان ابث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع اما وهو — كما يحدث الان — من عمل دولة الحماية فليس من المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها . وكان الدكتور يعلم رأيي هذا في الحماية من احاديثي معه قبل ذلك خلال زياراتي له في صدد مقالاتي الادبية فكاد ان يعتذر من مواجهتي بالاقتراح لانه نسي اننا تحادثنا في مسألة الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان في الاقتراح شيئا لا أسيغه لما فاتحني به ..» فهذا رجل يرفض لمبدأ ورأي لا لانه يأبى ان يكون « انجليزيا مفضوحا ». وكل ما في الامر ان رأيه يتعارض مع رأي انصار الخديوي ، وليس يعنينا الان الموازنة بين الرأيين ، ولكنا نقول ان كليهما على وجه العموم مخلص للوطن ، والاختلاف بينهما ليس اختلافا بين الوطنية والخيانة ، بل هو اختلاف بين رأيين في خير الوطن ومن اجله . ولقد حرص العقاد على دفع الشبهة عمن كانوا يعملون من اجل دخول الالمان والاتراك الى البلاد فقال في كتابه عن سعد زغلول « اما من كان من المصريين يرجو خيرا من الغزوة التركية فانما كان يرجوه لانه سمع باعتراف الدولة العثمانية باستقلال البلاد ، ولان فتح مصر لم يكن على تقديره ليفضي الى ضياع استقلالها ولو لم تصح اشاعة الاعتراف به في الاستانة لان الالمان لا يقدرون على غصب مصر من الترك والترك لا يقدرون على قهرها بالقوة الدائمة ، وقد كان قطع طريق الهند غرضا كافيا لفتح مصر وتسليمها الى أهلها والاستفادة منهم في اثناء الحرب بما يقدمونه من الجند والميرة والمال ، والا فمن المضحك ان يتوهم احد ان المصريين ودوا يومئذ لو يخرج الانجليز ليحل الالمان في محلهم ويسيطروا وحدهم او مع الترك على حكومة بلادهم فتلك سخافة لا يعقلها عاقل ولا يقول بها قائل يزن كلامه » .

هذا رجل يعرف الانصاف فلماذا يعز عليه الانصاف !؟

وموقف ثالث مع الانجليز صوره فتحي رضوان بعد ان اسقط منه ما لا يوائم دعواه فقال « ذكر العقاد بنفسه (انتبه ، آي ان العقاد اقر على نفسه والاعتراف سيد الادلة) ان صحفيا ايرانيا زاره في سكرتارية مجلس الاوقاف الاعلى ابان عمله بهذه الوزارة وانهى اليه ان السكرتير الشرقي بدار الحماية البريطانية يريد ان يراه فذهب اليه العقاد في مكتبه بدار الحماية فدار الحديث بينهما حول شؤون الاوقاف مما يتصل بعمل العقاد ، وتحرى ستورز من العقاد عن صفقات نمى الى علم الانجليز ان الخديوي عباس يضغط على الموظفين المختصين بديوان الاوقاف للموافقة عليها ، وهي عمليات تبادل بين اعيان تابعة للاوقاف واعيان مملوكة للخديوي او للاوقاف الخصوصية الخديوية . وفي التبادل نفع ظاهر للخديوي وغبن بين للاوقاف . واجاب العقاد بما بدا له يومذاك ولما خرج وصاحبه فهم العقاد ان حديث ستورز عن الاوقاف لم يكن سوى ذريعة تذرع بها ليسمع العقاد فيحكم مما يقول على مدى لياقته وصلاحيته للقيام باعباء رئاسة تحرير جريدة المؤيد التي كان يملكها الشيخ علي يوسف وكانت هذه الرئاسة قد خلت آنذاك بوفاة الشيخ .»

وغير ذلك تصوير العقاد للموقف . يقول « كانت يد الخديوي مطلقة في وظائفه واملاكه ، وكان مع الاسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأبى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال ، وشاعت في تلك الايام قصة ارض المطاعنة التي اخذ فيها الخديوي لنفسه ستين الف جنيه باسم « العمولة او الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا في طريقه من الموظفين النزهاء فعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال . وكان المحتلون يحاربون الخديوي على تقليد النزاع بين السلطتين ، ويأبون عليه ان يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة في داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لا يستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الاستانة لجس النبض في دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام بجواز الرقابة الرسمية على نظار الاوقاف وعلى ناظرهم الكبير وهو امير البلاد . وكان طلاب الاصلاح يهتمون بامر واحد وهو القضاء على المفاسد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية اشد الارتباط ، فلا امل في اصلاح هذه المعاهد ولا في اصلاح القضاء الشرعي معها ولا في اصلاح الازهر بفروعه ما لم تكن ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من تلك العزلة التي جعلتها اشبه بصنيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين صنيعة يغار عليها مالكها وصنيعة يبددها من يملك الامر فيها .. قد هالني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا اجهل قبل ذلك انها شيء يهول (لاحظ ان الاستاذ فتحي اغفل ذكر هذا الشيء المهول لانه لا يريد ان يظهر الخديوي على حقيقته للقارىء لان الحزب الوطني ـ والاستاذ فتحي كان في مرحلة من مراحل حياته السياسية منتميا اليه ـ كان على وفاق مع ذلك الخديوي) . وكنت اتكام ولا اتحفظ . وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي اختلف اليها ، وكلها في بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهلية حيث كنت اقيم .

وكان الاستاذ روحي الايراني صاحب احدى المدارس الكبيرة في العباسية البحرية (اذن لم يكن صحفيا كما ذكر الاستاذ فتحي وهذا من قلة التدقيق)، وكان يعمل في ساعات من اليوم بالترجمةفي دار الوكالة البريطانية فجاءني عصارى ذات يوم يقول معتذرا : ارجو ان تغفر لي غلطة وقعت فيها بغير اذنك .

قلت : خيرا فما اظن انني عرضة منك لغلطة تضير . قال : انهم سالوني اليوم عن مقترحات في الصحف وانا اترجمها لهم فقلت انني اعرف كاتبها وذكرت لهم انني اراك في كثير من الايام ، فهل يغضبك ما فعلت ؟

قلت : انني كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب في الصحف بتوقيعي لو كنت استطيع ذلك دون ان يبادروني بالفصل من الوظيفة فلا لوم عليك ولا حرج علي . قال : ليس هذا كل ما في المسالة ، فان السكرتير الشرقي يريد ان يلقاك فهل لديك مانع ؟ قلت : لا مانع لديه فما المانع لدي . وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الاستاذ حسين روحي فاستهل الحديث بالكلام على الادب وعلى برناردشو ثم استطرد الى الكلام على الصحافة ، واكثر من الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا الى الكلام على الاوقاف فسالني عن صفقة منوية على ارض يملكها عين مشهور من اعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهي لا تزال في دور التحضير الاول ولما تصل مذكرة من مذكراتها الى قلم السكرتارية . ثم بدرت منه كلمة جافية لا ادري كيف جرى بها لسانه الا ان يكون قد تعود الجهر بامثالها ولم يتعود من احد ان ينكرها عليه ، فقال : الا ترى ان حرمان الاوقاف من الرقابة الاجنبية هي علة هذه المفاسد التي شاعت فيها ؟ فصدمتني هذه الكلمة النابية ولم البث ان اجبتها بحدة ظاهرة فقلت : ان المجلس البلدي الاسكندري يتمتع برقابة اجنبية من كل جنس وصلة ، ولا اظنكم تحسبونه مثلا من امثلة النزاهة والنظام . فتنبه وسكت ، ثم استانف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختام .. »

وواضح من هذا الان الانجليز لم يجدوا في العقاد رجلهم الذي يطمئنون اليه في رئاسة تحرير صحيفة كالمؤيد ، ولكن فتحي رضوان يرى غير هذا : « لسنا في حاجة الى ان نقول ان الانجليز لا يتجهون الى ترشيح كاتب كالعقاد لشغل هذا المنصب السياسي الهام الا وقد علموا سلفا باتجاهاته السياسية وبشعوره نحوهم فقد كانت الغاية من اسناد رئاسة تحرير المؤيد اليه ان يكون المؤيد لسانا من السنتهم . » يقول ذلك متجاهلا السبب الذي ادى الى مقابلة العقاد للسكرتير الشرقي ، ومتجاهلا نتيجة المقابلة التي تدل دلالة قاطعة على ان العقاد ليس هو الرجل المطلوب . واذا كان شعور العقاد مع الانجليز فلماذا يجبههم بمنطق العدو وهو في مقام اختبار الشعور ؟ ام يريد الاستاذ فتحي ان يقول ان الرجل لا يكون وطنيا وقد خطر على الانجليز ان يعرضوا عليه التعاون معهم ؟! ان هذا غلو في التصور لان الانجليز لا يمتنع عليهم ذلك الخاطر الا باحد امرين : ان تكون عداوة العقاد لهم قد اصبحت ظاهرة ولم تكن في ذلك الوقت من الظهور بحيث تقطع عليهم كل رجاء في استخدامه ، والعداوة ـ بعد ـ ظاهرة او غير ظاهرة لن تمنعهم من محاولة الاغراء ، او ان يهبط عليهم وحي بان العقاد سيرفض كل ما يعرضونه ، والاستاذ فتحي لا شك مؤمن بان زمان الوحي قد مضى ، وهو لا شك عالم ان الانجليز لم يكن لهم في ماضيهم حظ منه فالاحرى الا يكون لهم في حاضرهم ايضا .

اما الموقف الرابع مع الانجليز فقد اسقطه الاستاذ فتحي برمته وهو يحكي لنا قصة تعقب البوليس للعقاد وهو في اسوان في بداية الحرب الاولى . قال « وكان لتعقب البوليس للعقاد قصة مردها ايضا الى الحساسية المفرطة عند العقاد ، فقد اشتغل ناظرا بمدرسة ابتدائية في اسوان ، واقام للمدرسة حفلا كبيرا على عادة المدارس في نهاية العام الدراسي ، وارسل دعوة الى المدير ليشرف الحفل فلم يلب المدير الدعوة ولم يعتذر عن حضورها ، فانتقد العقاد مسلك المدير امام جمع من الناس ، ثم نقل هذا النقد الى المدير فكبر عليه ان ينتقد علنا امام صغار الناس ومن موظف صغير (المدير معذور كما نرى والعقاد سيء الادب !!) ، فاستدعى العقاد الى مكتبه الذي ما كاد يدخله حتى اخذ مقعدا وجلس امام المدير ، وثار المدير لان العقاد لم يستاذنه في الجلوس ، فرد عليه العقاد « ان الحكومة وضعت الكراسي في هذه الغرفة لاجلس عليها انا وامثالي » ، وصرف المدير العقاد ولما وصل الى بيته وجد ان امرا صدر بقضي عليه بملازمته بيته . فقد وقعت هذه المشادة خلال الحرب العالمية الاولى ، وكانت الاحكام العرفية معلنة وثقل الامر على العقاد فاتفق مع احد ذوي قرباه على ان يفتعل شجارا على مقربة من داره يصرف نظر العسكري المكلف بحراسته ريثما يفر ، ثم

انطلق حتى وصل الى المحطة فاستقل القطار المسافر الى القاهرة .. »

وفي هذا الكلام تحريف كثير نكتشفه اذا رجعنا الى العقاد . قال « ادركتني الحرب العالمية الاولى وانا في اسوان ، واحس الناس بوطأة الاحكام العرفية .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين واذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والاوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الاحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات اوشكت الرغبة في الاستبداد ان تصبح هوسا في نفوس بعض « الحكام » ، ولا سيما الحكام الذين بدا لهم ان الفرصة سانحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب وشفاء للضغائن والاهواء ... لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في اسوان انه اراد ان يقضي يوما مع اسرته في الجزيرة الغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في ايام الاجازات فارسل المنادي « الرسمي » يطوف ارجاء المدينة ، وينذر من تحدثه نفسه بالنزول في الجزيرة ان يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار . وشاعت سيئات الحرب العالمية على اسوئها في اقليم اسوان الامن الوديع . تجنيد اجباري لفرقة العمال ، واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، واتاوات تفرض لعلة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمر ، او ترفيها عن المرضى والجرحى او مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، واصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف او انذار بالسداد في غير تردد ولا مساومة . حدث هذا في بلدي وبين اهلي وعشيرتي وانا انظر اليه بعيني واستمع الى اخباره باذني واحس كل مظلمة من مظالمه باحساس قريب واحساس انسان . حدث كل هذا وانا في الخامسة والعشرين . وحدث هذا وانا اقرا الشعر فلا ازدري ابا نواس لقول من اقوال المجون كما كنت ازدريه لقوله في الحكمة :

خل جنبيك لرام ، وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

لا يا ابا علي ، غفر الله حكمتك ومجونك فان كان موت يا صاح ، فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام ؟ وتكلمت باللسان وتكلمت بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية والى السلطان . وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالا .. كنت اشكوه واعزز الشكوى بالبينات ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرا في الصحف انه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التي يستدعي لاجلها من اسوان ، فنعلم انه سمع فيها ما ليس يرضاه .... ويتبين من مجرى الحوادث ان المدير تعذر عليه نفيي لانه نفى قبل ناظرا لمدرسة المواساة وكنت انا ناظرها الثاني فاشفق القوم ان يقال انهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة في البلدة ، وكل ما استطاع المدير ان يقنعهم به هو ان يشدد علي الرقابة ويقيد اقامتي بالمدينة فلم اكترث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لانني بطبعتي كثير العكوف في المنزل ... وفتقت الحيلة للمدير ان يصدمني بمفتش الداخلية الانجليزي ، فالقى اليه انني اتهمه بالرشوة واذيع عنه انه يقاسم الموظفين « اتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لانني كتبت في الواقع القول واعيد ان المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرؤوسيه . واستدعاني المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش في الحرب ولا في السلم » فبدرت مني كلمة لا ادري ماذا كنت اقول سواها لو قصدتها عن روية ، وقلت : ان الانجليز جديرون بالتهنئة لانهم قد تفيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال . والمعروف ان حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من اشنع الفضائح في حالتي الحرب والسلم اثناء القتال وبعد القتال ، فلو انني تعمدت الروية لما وجدت امامي مثلا اقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم ، ولكنني لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة اولى واحجى ، فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائي من المدينة ، وقال عني انني اخطر من ناظر المدرسة الذي نفته السلطة قبلي الى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعمدت ان اشغل مكانه تحديا للامر الذي صدر بعد القبض عليه .. » . ورد هذا كله في كتاب « حياة قلم » .

اما خبر المدرسة واحتفالها فنقراه في كتاب « انا » يقول العقاد « كنت مدة الحرب العالمية الاولى ناظر مدرسة المواساة الاسلامية بأسوان ، وكان عندنا اذ ذاك مدير متاله طالما كابد الاهالي من غطرسته شرا . وصادف ان وقعت حادثة القاء القنبلة على السلطان حسين كامل فنجا منها واحتفلت البلاد بنجاته ، وكان حقا علينا ان نحتفل مدرستنا بهذه المناسبة . (هذا هو سبب الاحتفال وليس كما ذكر الاستاذ فتحي ، وهذا من قلة التدقيق او من ضعف الذاكرة) . فلما اعدت العدة لهذا الاحتفال دعوت سعادة المدير لحضوره ولكنه لم يقبل فاحتججت عليه في ذلك ، فكان جوابه أن طوق المدرسة بخيله ورجاله (هذا هو جواب المدير وليس جوابه كما ذكر الاستاذ فتحي انه استدعى العقاد الى مكتبه) ، فرفعت عنه تقريرا الى السلطان حسين ، فلما وصل عظمته استدعى المدير الى القاهرة واطلعه على شكواي ، ويظهر انه انب المدير تانيبا شديدا ، اذ ما عاد المدير حتى استدعاني ، فلما حضرت الى مكتبه جلست على احد المقاعد التي فيه فما كان منه الا ان انتفض قائلا « قف امامي يا افندي » فلم املك امام تلك الفظاظة الا ان اقول له « ولاي شيء هذه الكراسي المرصوصة التي اشتريها الحكومة للجلوس في هذا المكتب ؟ » فبهت الرجل من هذه الاجابة ، ولكنني تركته وانصرفت ، فتهيج الرجل وامر اعوانه باللحاق بي ، فلما رجعت اليه جعل يهددني بالنفي الى « مالطة » وانا اعلم ان النفي الى مالطة اذ ذاك معناه الاعدام لان صحتي كانت لا تسمح لي بتحمله ، ولكني لم اعبأ بذلك وقلت له « افعل ما تريد » وانصرفت » .

التتمة على الصفحة ـ ٦٠

هذا الشهر :

بدر شاكر السياب

مختارات من شعره

قدم لها :

ادونيس

منشورات دار الاداب

عاصفة على العقاد

تتمة المنشور على الصفحة ـ ٣١

ثابت ان وزارة محمد توفيق نسيم الثانية كانت ممالئة للانكليز ، والاستاذ فتحي رضوان لا يخالف في هذا ، وثابت ان العقاد هو قائد الحملة التي انتهت باسقاط الوزارة ، والاستاذ فتحي رضوان لا يخالف في هذا . فماذا يقول الاستاذ فتحي رضوان في هذا بعد كل هذا ؟ يقول : « هل كان خروج العقاد واصدار جريدة « روز اليوسف » اليومية سببا للانشقاق الذي وقع في صفوف الوفد والذي خرج بسببه بعد ذلك ماهر والنقراشي ، أم ان الانشقاق هو الذي أوحى باصدار جريدة لا تخضع للتوجيه المباشر لزعامة الوفد ، وتتمتع بشيء من الاستقلال في وضع سياستها وتنفيذها ؟ » وهذا سؤال لا محل له لانه من الثابت أيضا ان خروج العقاد على الوفد كان بوحي من نفسه ولم يكن باتفاق مع ماهر والنقراشي . ولقد سمعت من العقاد ان النقراشي نصح له بعدم الخروج على الوفد اشفاقا عليه من جبروته . ثم لماذا يتم الاتفاق سرا ؟ جواب لا سؤال عليه . ولكن الاستاذ فتحي يلقي ضوءا جديدا على الفكرة يزيدها غموضا ، يقول : « الذي نرجحه ان الدوائر ذات النفوذ التي ترسم سياسة مصر ، وتحرك الخيوط المتصلة بالزعامات والزعماء ، كانت قد فرغت من اصدار قرار يقضي بأن تقوم هيئة سياسية جديدة ، تنتمي نسعد زغلول ، وتعمل في السياسة الحزبية تحت اسمه ، ولا تخضع في الوقت نفسه للنحاس ، ولا تدين له بالولاء » . والدوائر ذات النفوذ يعني بها الاستاذ فتحي بالطبع الانكليز ، ومعنى هذا الذي يرجحه ان الانكليز لامر ما جمعوا في احدى الليالي العقاد وماهر والنقراشي وروز اليوسف واتفقوا معهم على ان يعملوا من أجل تكوين هيئة جديدة مستقلة عن الوفد ، وان يبدأ العقاد وروز اليوسف بالعمل ثم يتبعهما بعد عامين النقراشي وماهر ، ولا بد انهم اتفقوا مع العقاد أيضا على أن يهاجم الوزارة التي يؤيدونها لسبب لا زال في بطن الغيب حتى هذه اللحظة !!

هذا خيال لا يحتمل يا أستاذ فتحي .

ثم ماذا ؟ كتاب « هتلر في الميزان » الذي صدر في بداية الحرب الثانية هو في رأي الاستاذ فتحي خدمة للدعاية البريطانية . « بزغ نجم هتلر سنة ١٩٣٣ وشاعت الدعوة النازية في كثير من بلاد العالم حتى وصلت الى بريطانيا معقل الديمقراطية .. وقد كانت مهاجمة هذا المذهب وهو في البداية أولى لان الناس في حاجة الى من يبصرهم بخطر المذهب الضار أول سماعهم به لكيلا يقعوا فريسة له ، ولكن العقاد لم يقل في حق هتلر شيئا أو شيئا ذا قيمة ، حتى اذا قامت الحرب ، وانعقدت الخصومة بين المانيا بلد هتلر وبريطانيا سارع العقاد بتأليف كتابه « هتلر في الميزان » وراح يعدد عيوبه وعيوب مذهبه فاقام على نفسه الحجة بأن الكتاب كان خدمة لجهاز الدعاية البريطانية ، فبعد اندلاع الحرب بين المانيا وبريطانيا لم يعد كتاب العقاد مطلوبا الا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها بعد أن بات الامر للمدفع والطيارة ، ولقد عزز العقاد كتابه بأحاديثه في الاذاعة التي كان يشرف عليها بدورها الانكليز خلال فترة الحرب وما بعدها . وقد فهم بعض شباب العرب موقف العقاد هذا الفهم ، فلما زار فلسطين في سني الحرب جاوتوا اغتياله باطلاق الرصاص عليه » معهم حق شباب العرب هؤلاء !! سامحك الله يا أستاذ فتحي !! أكنت تريد من شباب العرب هؤلاء وأنت ترى صواب فهمهم وتدين العقاد معهم أن يردي رصاصهم أعظم كتاب العربية في عصرها الحديث ؟ فيذهب العقاد ويبقى بضعة أوغاد مجرمين ؟

قال العقاد وقد ووجه بهذه الدعوى في سنة ١٩٥٤ : « أظنكم تهمسون أو تجهرون بخدمة الدعاية البريطانية ، وليس الافتراء من أمثالكم بعسير . فان يكن الافتراء منكم يسيرا فهو علينا عسير جد عسير ، ودونه تنقطع الالسنة وتخرس المكابرة بالقول القاطع لا بالاختلاق والتشهير . اللواء شوقي عبد الرحمن حي موجود كان في أيام الحرب ضابط الاستعلامات بوزارة الدفاع المصرية ، وهو الذي يعلم ان الانكليز سألوا عن الكتاب وطلبوا منه نسخا لتوزيعها بعد طبعه وتداوله فكانت النسخ التي اشتراها لا تزيد على ثلثمائة نسخة وهي كل ما وصل الى الانكليز ولم يصل اليهم الا من طريق الحكومة المصرية . ومرجع اخر ترجعون اليه لانه مكتوب ومحفوظ ، ذلك هو مرجع المكاتبات البريطانية بعد نهاية الحرب العالمية ، فاذا رجعتم اليها وجدتم فيها أسماء سادتكم ولم تجدوا فيها اسما لكاتب هذه السطور لان كاتب هذه السطور يكتب توجه الادب ولوجه الانسانية ، ولا ينسى أن ينحي على الاستعمار كلما انحى على النازية والفاشية » .

أما ان العقاد لم يبصر الناس بخطر النازية فليس صحيحا . لقد كتب في سنة ١٩٢٨ كتابه « الحكم المطلق » فحلل فيه الفاشية وهاجم النظم الاستبدادية فلما ظهر هتلر بعد ذلك وتولى حكم المانيا كان العقاد يقرن الفاشية مع النازية في مقالاته كلما اقتضى الحال . والكلام عن الفاشية كاف لمن يريد ان يفهم ويريد ان يعتبر ، والا فان القارىء الذي لا يفيد من « الحكم المطلق » في الحذر من امثال هتلر لن يفيده ألف كتاب عن هتلر . ومع ذلك لم يقنع العقاد بما كتبه عن الفاشية أو باشاراته المتفرقة الى خطر النازية ، وأخرج كتابه عن هتلر في بداية الحرب غير متأخر عن أوانه لانه كتاب موجه قبل كل أحد الى المصريين ، وكانت بوادر الافتتان بالاستبداد الفاشي قد ظهرت عليهم قبل الحرب الثانية بسنوات ، ثم افتتنوا بالنازية عند قيام الحرب ، وما زالوا كذلك حتى هتفت المظاهرات في وجه الانكليز : الى الامام يا رومل . فاذا كانت كل حجة الاستاذ فتحي على ان الكتاب الف خدمة للدعاية البريطانية هي انه صدر بعد قيام الحرب لا قبلها ـ ولا يقنعه ما كتب العقاد في « الحكم المطلق » ـ فنحن نحيله الى مضبطة الجلسة الثالثة عشرة من مضابط مجلس النواب المصري في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨ أي قبل اندلاع الحرب بتسعة اشهر ، وفيها يجد العقاد قد جهر برأيه في النازية وفي كل صنوف الحكم الاستبدادي أجنبيا كان أو قوميا . لقد أدى العقاد واجبه كاملا في تنبيه قومه ولم يكن كتابه عن هتلر الا امتدادا لتنبيه قديم . غير أن « الحالة » لا تعدم شيئا تقوله وان تلجلج اللسان والتوى الف التواءة قبل ان يستطيع النطق . تقول « الحالة » : « بعد اندلاع الحرب لم يعد كتاب العقاد مطلوبا الا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها بعد أن بات الامر للمدفع والطيارة » . تريد « الحالة » أن توهمنا ان « تجميع الناس حول بريطانيا » كان في ذلك الوقت جريمة عظمى ، كما حاولت أن توهمنا من قبل أن التشيع للالمان والاتراك والخديوي في أثناء الحرب العالمية الاولى كان هو الوطنية حق الوطنية . وتريد أن توهمنا أيضا انها « حالة عادلة » تتحرى القرائن الصحيحة قبل اصدار الحكم ، فهي لا تحكم ارتجالا ولكنها تنظر فترى حربا تقوم وترى كتابا يخرج بعد قيامها منتصرا للفريق الذي يحتل بلادنا ، فالامر اذن مفهوم والجريمة واضحة ثابتة . فهل تسقط القرينة لو قيل للحالة ان العقاد هاجم النازية قبل اندلاع الحرب ، وهل تسقط اذا قيل لها ان كتاب « الحكم المطلق » لم يظهر في أثناء حرب ؟ كلا ، سيدور اللسان في الحنك دورة أو دورتين ثم تقول : لا بأس ، الانكليز أعداء لنا قبل الحرب وبعد الحرب وكل مهاجمة لاعدائهم هي انتصار لهم قد قبض أجرها . هنا ندع « الحالة » وقد بلغت هذا الحد من الهذيان الى مصيرها المحتوم ، ثم نقول للقارىء : نعم كان رأي العقاد في الحرب مناصرة الحلفاء لان الانتصار لهم انتصار للديمقراطية . فاذا كانت مناصرتهم جريمة نكراء فما هو غير المنكر ؟ مناصرة المحور ؟ أم التفرج على المعارك الدائرة فوق أرضنا ؟ أما مناصرة المحور فحماقة أعظم من حماقة هتلر ، وأما التفرج فهو من الناحية العملية لم يكن

ممكنا . لقد تحملنا تكاليف الحرب وقدرا من جرائرها حتى لقد اعترف سير مايلز لامبسون السفير البريطاني في مصر باننا اشتركنا في الحرب وان لم نعلنها ، وهو من ناحية المبدأ والراي موقف العاجز الذليل الذي يترك الامر « للمدفع والطيارة » ثم يسلم نفسه للغالب . هكذا كان يفكر العقاد وهكذا فكرت الهيئة السعدية في البرلمان المصري ، وعلى الرغم من ان مجلس الوزراء المصري في ذلك الوقت لم يأخذ برأي الهيئة السعدية في اعلان الحرب على المحور كان مجمعا على دخولها اذا وطئت جيوش المحور ارض مصر ، فهل كان يكون دفاعنا حينئذ دفاعا عن محتلي بلادنا ، وهل كانت الامة كلها تكون حينئذ أجيرة للاستعمار البريطاني ؟!

بقي سهم سقط في جعبة فتحي رضوان من جعبة مكرم عبيد . يقول : « كان العقاد عنيفا غاية العنف مع خصومه من المصريين ، ولكن لم يؤثر عنه طوال حياته السياسية شيء عنيف في حق الانكليز واحتلالهم الا ما عسى ان يكون قد قاله ابان ثورة سنة ١٩١٩ حينما كان أسلوب جميع الكاتبين والناظمين والخطباء والمتكلمين هو أسلوب العنف والحدة في مقاومة الاحتلال » . ولو اردنا ان نورد شواهد فقط على ما قاله العقاد في « حق الانكليز واحتلالهم » لضاقت عنها صفحات هذه المجلة . أما مكرم عبيد فهو يرى أن عنف العقاد تجاه الاستعمار فتر كثيرا بعد خروجه من السجن . قال : « وما أن خرج البطل من السجن حتى ابتلع حماسته ولطف من حدته فكنت تقرأ مقالاته فتكاد لا تعرف أسلوبه لان أسلوبه من الصنف العنيف بينما السجن من الصنف المخيف » . وقال العقاد من رده عليه : « .. هذه صحيفة مصر لم أبدأ الكتابة فيها بعد خروجي من السجن الا وقد بدأت الحملة على الاستعمار ووالية الكتابة والدعوة الى الجهر بخطة العداء والمقاطعة ونشر الدعاية حتى اضطر الوفد اضطرارا الى اعلان تلك الخطة بعد شهور ، ولكنه أعلنها وهو يلتفت الى الوراء لينظر هل يتبعه الانكليز واعدين بكرسي الوزارة أو هم غير حافلين ، وأعلنها وحدها ولم يشفعها بالدعاية في الغرب والشرق كما فعلت جميع الامم في جميع القضايا الوطنية لان الوزارة لا تنال بالجد في العداء كما تنال بالتوسل والرجاء .. فماذا كان يقول مكرم عبيد « الشجاع » لو لم تكن صحيفة مصر محفوظة في المكتبات مذكورة عند القراء ؟ » .

والفرق هنا بين مكرم عبيد وفتحي رضوان ان مكرم لم يستطع أن ينكر تاريخ العقاد في كفاحه ضد الانكليز ، ولكنه اتهم العقاد بفتوره بعد السجن خوفا من الانكليز ـ وهو اتهام قد يدل على ان الانكليز كانت لهم يد في زج العقاد الى السجن وان تهمة العيب في الذات الملكية لم تكن هي كل شيء ـ أما فتحي رضوان فقد أنكر جهاد العقاد كله قبل السجن وبعد السجن معتمدا على تقادم العهد وقلة معرفة الجيل باحداث تلك الحقبة من تاريخ مصر ، حتى جهاده في ثورة ١٩١٠ يزري به لانه جهاد كاي جهاد ، وكأن الثورة لم تعرف أقواما من القاعدين والكارهين لمعاداة الانكليز ، وكأن كثرة المجاهدين ملفية لما بينهم من فروق .

ثم نذكر الاستاذ فتحي رضوان بشيء لا يستطيع انكاره لانه مسجل في الصحف : في سنة ١٩٣٥ سعى الاستاذان أحمد حسين وفتحي رضوان الى العقاد ابان احتدام المعركة بينه وبين الوفد ليكونا معه في ذلك الكفاح المرير . سعيا اليه تقديرا لجهاده ضد الانكليز ومن يوالونهم ويضعفون أمامهم ، وفي لقائهما به صارحهما العقاد بما يخامره من ريب في جماعة « مصر الفتاة » ، ثم نشر أحمد حسين خطابا مفتوحا في جريدة « روز اليوسف » الى العقاد فرد عليه العقاد وذكر في رده لقاء الاستاذين به ومصارحته لهما ودفاعهما عن الجماعة . قال أحمد حسين من تلك الرسالة : « هذا انت تمد يدك لكل عامل وكل راغب في الجهاد غير ناظر للاشخاص وغير مقيم وزنا الا للمبادىء والاعمال ، وهذي يدي أمدها لك لاكون جنديا واياك نعمل تحت لواء الكفاح الخفاق نتشاطر الجهاد والقتال ونقتسم في نهاية الامر ما ينتظرنا من سجن واغتراب واعدام . هذا أنا أيها العقاد الثائر امد يدي اليك ، هذا أنا باسم مصر الفتاة أمد يدي اليك واعاهدك على العمل ، ولست أعرف ماذا سيكون نصيب هذا التقدم من ناحيتي، ولكني أقوم بواجبي وهذا حسبي . تحية أيها العقاد الظافر أرسلها اليك والمجد لمصر » . وفي الجريدة نفسها نشرت كلمة فتحي رضوان التي أعدها لتلقى في الاحتفال بعيد الجهاد ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وقال في نهايتها : « نحن نصور في نهاية الامر غبطتنا وابتهاجنا اذ نقى الله الجو من الشكوك فتم تفاهم محمود المقدمات وسيكون باذنه تعالى محمود العواقب بيننا وبين الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد » . لقد كان الاستاذان بغير شك يعلمان في سنة ١٩٣٥ كل ما يقوله خصوم العقاد فيه وكل ما لفقه مكرم عبيد من أكاذيب . ولم يصدقا منه شيئا بالطبع ، والا ففيم سعيا اليه وعاهداه على العمل ؟ أكان سعيهما وعهدهما لخائن ماجور ؟ فهل يفسر لنا الاستاذ فتحي أين كانت « أدلته الدامغة » يوم اغتبط وابتهج بالتفاهم بينه وبين العقاد ؟ أم ان تفكيره نضج بعد اثنين وعشرين عاما فادرك ان الجريمة هي أن يخطر للانكليز مجرد خطران أن يسندوا الى العقاد رياسة تحرير المؤيد ؟ ولا عليه من نتيجة الخاطر ، ولا عليه من اشتراك العقاد في ثورة ١٩١٩ ، ولا عليه من حملاته المتتابعة على الاستعمار واذنابه ، ولا عليه من هجماته على كل ضروب الاستبداد .

(٢)

العقاد والملك :

تبطل العبرة من دراسة التاريخ اذا أخطأنا فهم البواعث التي تحرك الرجال ، لاننا لا نقرأ التاريخ كما نقرأ قصة لا يعنينا منها الا جانب التسلية ، ولكنا نقرأه لنعرف تفسيرا للوقائع والطبائع . وتلك وظيفة التاريخ ووظيفة الادب الرفيع . غير ان المؤرخ قد يقف عند ذكر الوقائع لا يتعداها الى التحليل والتفسير ، وهذا جهد لا بأس به على أن يكون جهدا أمينا ، أما ذكر الواقعة والقفز منها الى الحكم دون احاطة بالظروف التي اكتنفتها فشيء تأباه الدراسة النزيهة للتاريخ ، كما تأبى دراسة الادب على الناقد أن يرتجل أحكامه بغير تحليل أو تعليل .

مدح العقاد الملك . هذه واقعة ثابتة ، ولكن ما الباعث وما الغرض ؟ يقول فتحي رضوان انه مدحه تكسبا . فاذا كان المال هو غرض العقاد ، أما كان أولى به أن يزجي مديحه الى « فؤاد » كما أزجاه الى « فاروق » ؟ لقد هاجم العقاد الملك فؤاد وقال في البرلمان كلمته المشهورة ثم تابع هجومه في الصحافة فقبض عليه بتهمة العيب في الذات الملكية ، وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، لم كان ذلك من رجل « متكسب » ؟ سؤال خامر الاستاذ فتحي وهو يكتب ما كتب ولكنه ظل كامنا يوجه القلم من مكمنه ولا يظهر . يقول ان العقاد « هاجم الملك فؤاد مرة واحدة ولكنه لم يقل شيئا في حق فاروق » مرة واحدة .. واحدة فقط .. اذن فلننسها هذه المرة الواحدة ، ولنسقط من حسابنا لا لشيء الا لانها مرة واحدة ! ويقول في موضع آخر : « كان عبد العزيز فهمي أسبق الى مهاجمة الملك في شخص رئيس ديوان الملك حسن نشأت بكلمات عنيفة غاية العنف ،بأعنف من العقاد ومن الوفد كله ، كما كان أحمد عبد الغفار اكثر النواب جرأة حينما هاجم مخصصات الملك في برلمان سنة ١٩٢٦ وهو برلمان الائتلاف ، ولكن طبع عباس العقاد ومزاجه أتاحا له شرف القولة المشهورة » . عبد العزيز فهمي أسبق ، اذن فليتضاءل ولو قليلا ذلك الفضل الملحق في الافاق يسند علينا منافذ البصر ويجثم على صدورنا كالكابوس ، فليتضاءل لانه فضل مسبوق ، وهو فضل مرده بعد ذلك الى حرارة الطبع وحدة المزاج لا الى الروية والتقدير والاتزان، فلو لم يكن للعقاد ذلك المزاج وذلك الطبع (هكذا تفكر «الحالة») ،

ولو انه ثاب الى العقل لآثر الراحة والمسالمة والتكسب . وبهذا ينزاح السؤال المخامر : كيف يستقيم أن يكون ذلك الرجل المجاهد من « الادباء المتكسبين بأدبهم » ؟

ولننظر الان الى مثل من الامثلة التي يسوقها فتحي رضوان لتكون برهانا على دعواه . يقول : « الانحياز للملك والرغبة في الاجتماع به والاستظلال بجاهه نزعة قديمة عند العقاد ، انظر اليه يكتب في عدد البلاغ الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧ : الملك حقيقة فاعرفوها طائعين أو مكرهين ، من نصر الملك فقد نصر الحق ونصر الامة ومن تولى فعليه لعنة الحق ولعنة الامة » . ماذا يفهم القارىء من هذا الكلام ؟ يفهم ان العقاد يخاطب الامة كلها هذا الخطاب التحدي فيقول : الحق مع الملك ومن لم يذعن طائعا أذعن مكرها ، وللقارى بعد ذلك ـ وبينه وبين عام ١٩٣٧ عشرون عاما ، وبينه وبين مخازن الجرائد القديمة مشوار شاق ـ أن يسلم بأن العقاد ملكي أكثر من الملك .

والحقيقة ـ وقد تعمد تشويهها فتحي رضوان ـ غير هذا ، فان المطلع على حوادث تلك الفترة يعلم أن معركة حامية نشبت بين العقاد وحزب الوفد بزعامة النحاس ومكرم عبيد ، لم يكن للعقاد فيها سلاح تجاه أسلحة الوفد الجبارة غير قلمه ، معركة خبر فيها العقاد الامرين مريرة حتى داخله اليأس . وليس من الضروري الان أن نفصل القول في تلك السياسة التي أنكرها العقاد وحض الامة على انكارها ، ولكننا نكتفي بالاشارة الى طرف واحد منها يظهر طبيعة المرحلة التي دافع فيها العقاد دفاعا قويا عن فاروق : خطب مكرم عبيد في سنة ١٩٣٥ فقال : « الواقع ان من يتتبع تطورات نهضتنا الوطنية يلحظ ان الوفد قد تطور الى زعامة وان الزعامة قد تطورت الى زعيم » . كانت هذه الكلمة علامة على السياسة الجديدة التي انتهجها الوفد ، سياسة الحكم الدكتاتوري ، هذه السياسة التي مارسها النحاس بعد سقوط وزارة نسيم وتاليفه الوزارة الوفدية الجديدة ، وكان من مظاهرها تكوين فرق القمصان الزرق لتكون يده التي يبطش بها بكل مخالفيه ، وعاثت تلك الفرق فسادا في البلاد ، وضاق بها الناس ، وشكوا فما أصغت الوزارة الى شكواهم ، وما زال الامر يتفاقم والايام تمضي من سيىء الى أسوأ وسطوة « القمصان الزرق » تشتد حتى لجأ الناس الى الملك ليشير في الحالة برأي ، ولكن الملك بحكم الدستور لا يحق له أن يتدخل في أمر أقرته وزارة لها في البرلمان أكثرية . كان المطلوب من الملك أن يعمل على حل القمصان الزرق ، وكان النحاس يرفض تدخل الملك محتجا بالدستور ، ووجد الملك نفسه في موقف حرج لان الشكوى في محلها وتدخله مناف للدستور . أيصمت العقاد وهو يرى الملك ـ وقد عقدت عليه الامال في وقف طغيان الوفد ـ في ذلك الموقف الدقيق ؟ لم يصمت ، وما كان له أن يصمت ، بل أعلنها شعواء دفاعا عن حق الملك في التدخل من اجل الاصلاح . قال العقاد في البلاغ ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٧ : « ومن الامور المعروفة أن جلالة الملك يعمل بواسطة وزرائه ، ولكن هل معنى ذلك ان الوزراء يجوز لهم أن يخالفوا الدستور وأن من حقهم الخروج على قواعده وأصوله ما دامت لهم كثرة غالبة في مجلس النواب ؟.. ان قيام القمصان الزرق لا يخالف الدستور وحسب بل هو يخالف الديمقراطية في صميمها وهي شيء أعم من الدستور وأولى منه بالغيرة والصيانة ... ومتى كان من حق الوزارة أن تحكم على الطريقة الدكتاتورية وهي لم تتلق الحكم الا على اعتبار واحد وهو انها وزارة دستور وديمقراطية ؟ وهل في الدنيا أعجب من قيام وزراء دكتاتوريين في عهد ملك دستوري .. ونسأل بعبارة أوضح وأصرح : اذا كانت الوزارة لا تملك أن تسير على الخطط الدكتاتورية الا بموافقة صاحب الجلالة الملك فهل من حقها أن تعمل ما يتضمن هذه الموافقة بغير حصولها ؟.. وهل يجوز للوزراء أن يشرعوا في البلد نظاما فاشيا وهم لا يعملون عملهم الا على أساس الديمقراطية دون غيرها ؟ » .

وقال في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ : « من حق صاحب الجلالة أن يشير برأي في هذه المسألة لانه قائد الجيش الاعلى ، فيحق له أن يصون سمعة الجيش وأن يمنع قيام هيئة عسكرية غير الهيئة التي هو قائدها وحافظ نظامها ، ومن حق صاحب الجلالة أن يشير برأي في هذه المسألة لانه حامي الدستور المقسم على صيانته والولاء لقواعده وأصوله فيحق له أن يأبى قيام الفرق التي أباها أنصار الدستور والديمقراطية في أرجاء العالم قاطبة وعلى رأسها البلاد الانكليزية والبلاد الفرنسية . ومن حق صاحب الجلالة أن يشير برأي في هذه المسألة لانه ملك البلاد ورئيس الدولة الاعلى ، فيحق له أن يستمع الى الشكاية من رعاياه على اختلاف الهيئات والاحزاب وان يدل الوزارة على مواضع هذه الشكاية ... هذه الفرق مخالفة للديمقراطية والحياة النيابية ما في ذلك مراء ولا محال ، وقد يحسب بعض الناس اننا نعارضها اليوم لاننا نعارض الوزارة ولا نصبر على سيئاتها وأخطائها ، فليعلم هؤلاء ان رأينا في هذه الفرق قديم أعلناه وأعلنا أخطار المذاهب الفاشية قبل أن يلتفت اليها الكثيرون في هذه البلاد وفي غير هذه البلاد ، ونشرناه في رسالة « الحكم المطلق » قبل تسع سنوات فلا باعث لنا على نقدها غير الايمان بالحرية الدستورية ، والخوف على مصر من عواقب هذه المذاهب التي لا يفهمها المقلدون هنا الا على ظواهر الازياء والعناوين ... ان امرا واحدا محقق كل التحقيق حتى لا شبهة فيه من الشك وهو ان بقاء هذه الحال من المحال ، والتدبير بعد ذلك موكول الى حكمة المليك وحكمة الامة وحكمة الغيورين على الحق والحرية والاخلاق » .

ويجب أن نذكر شيئا هاما في تلك الفترة وهو ان الانكليز كانوا يحمون النحاس صاحب معاهدة سنة ١٩٣٦ التي يقول فتحي رضوان ان الامة خدعت فيها . ولما أحست جماهير الوفد ان النحاس في خطر خرجوا متظاهرين هاتفين « النحاس أو الثورة » ، الى هذا الحد بلغ احتدام المعركة ، الانكليز راضون عن الوزارة والغوغاء يرتكبون جرائمهم فيتقاضى رجال الامن ، والوزارة تحتج باقامة الدستور ، والملك شاب صغير يطمع في حقوقه . في ذلك الجو المكفهر الذي ينذر باوخم العواقب والذي وصفه لنا وصفا أمينا الدكتور هيكل في مذكراته كتب العقاد مقاله الذي اختاره فتحي رضوان من سلسلة مقالاته عن الملك مكتفيا بعنوانه واخر كلمة فيه . وهو مقال يصور لنا حقيقة الازمة من الناحية الدستورية . قال العقاد : « مسألة البحث بين المختلفين هي : هل للملك حقوق دستورية في شؤون الحكومة ؟ او كل حقوقه لا تتعدى مجرد التوقيع والتأمين ؟ وما من أحد في العالم يزعم ان أمة دستورية تقيم عرشا لا عمل له غير مجرد الموافقة ، وما من دستور في العالم يحرم رئيس الجمهورية ـ فضلا عن الملك ـ حق المراجعة والمناقشة في سبيل المصلحة العامة ، وليس الغرض من المراجعة والمناقشة بداهة أن تكون شكلا من الاشكال أو رسما من الرسوم ولكن الغرض منها أن تؤدي الى الاقناع والتعاون على الصواب، واذا كان للوزارة أن تقر على رأيها وتأبى الاقتناع بعد ذلك فللملك أن يقيل الوزارة وأن يحل مجلس النواب اذا لم يؤيد الوزارة التالية، وعلى هذا تنتظم الحقوق الدستورية ولا تنحصر في يد واحدة لها جميع الحقوق وليس لغيرها حق على الاطلاق » . ثم تحدث عن مظاهر الازمة وتشبث الوزارة برأيها وبقمصانها الزرق ، ثم قال : « ناقش الملك فيما عرضته عليه الوزارة وهذا حقه المشروع بل حقه الواجب للقيام بالحراسة العليا على مصالح البلاد في جميع العهود وبين جميع الاحزاب . وناقش الملك ثم ترك للوزارة في بعض المسائل عشرة شهور وفي بعضها ثلاثة أشهر وفي بعضها شهران فليس في الامر ارهاق ولا

تعجيل . ووقفت الوزارة لا تعرف الا « هكذا وكفى » ولا تدين بحجة للاقناع غير الاصرار والاستئثار المطلق بالحقوق المدعاة فكيف يكون التعاون على هذه الحال ؟ وكيف تطرد الاعمال على هذه الوتيرة ، وما هي الوسيلة اذن في رأي الوزاريين غير الغاء الحقوق البديهية لصاحب التاج ، ولولا هذه الحقوق لاسترسلت الوزارة في اخطائها الكبرى ... ثم لا تستقيل الوزارة ولا تسمح لرجل من حزبها أن يتولى الحكم بعدها ولا تسمح بالتحكيم بين القصر وبينها فماذا تريد ؟ .. أما الاقتناع بالحجة فلا . وأما الاستقالة فلا . وأما قيام وزارة أخرى من حزب الكثرة فلا . وأما التحكيم واختيار المحكمين بالوظائف لا بالاسماء فلا . وهكذا وكفى ... ولا دستور الا هذا الدستور . ولا علاج الا هذا العلاج . كلا أيها الناس ، ان حدود الدستور واضحة وان حدود العقل أوضح ، وان الملك ذو حقوق ، وانه ليس أكرم منه ولا أرحب صدرا وأوفر حلما وأعظم غيرة على مصالح الامة فيما استعمل من حقوق ... الحق مع الملك ، والملك حقيقة ، فمن نصر الملك فقد نصر الحق وقد نصر الامة ، ومن تولى فعليه لعنة الحق ولعنة الامة ، وسيعلم العقبى وسوء المصير » .

وبعد كل هذا نسأل الاستاذ فتحي رضوان : مع من تقف في مثل هذا الصراع ؟ ولسنا في حاجة الى سماع الجواب لاننا قرأناه في رسالة منشورة في البلاغ ٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ وجهتها جماعة « مصر الفتاة » الى الملك طالبة اصدار امره باستفتاء الامة في وزارة لا ترضى عنها الامة وعمل انتخابات جديدة .

وبعد كل هذا نقول للاستاذ فتحي ليس صحيحا ان العقاد نزع منذ قديم الى الاستظلال بجاه الملك ، بل الصحيح ان الملك هو الذي سعى الى العقاد ، والوثائق تشهد . قال العقاد وقد ووجه بهذه التهمة في سنة ١٩٥٤ : « أما فاروق فقد « لعنا أباه » حرفيا فهل سمع أحد اننا زحفنا على بطوننا الى عرشه يوم كان له عرش تزحف اليه البطون ممن تعلمون ولا تعلمون ؟ انه على هيامه بذكرى أبيه قد تقرب الينا ولم نتقرب اليه ، وسئلنا أن نستقبله في بعض المناسبات يوم كان الناس جميعا يمدحونه ولم يكن أحد يعيبه سرا ولا علانية ، فقدمنا له النصح في قالب المدح ووصفناه بما ينبغي أن يتصف به من تفدية الرعية وصيانة الاستقلال والحرية . ولم نطلب قط أن نلقاه الا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء ، وهذه سجلات القصر محفوظة يرجع اليها من شاء » .

(٣)

انصاف :

وأخيرا ها هو فتحي رضوان يتأهب للانصاف حتى لا يقول القارىء : متحامل عياب ، أو لكي يقول : « موضوعي » يحرص على الحقيقة كلها ، أو صاحب رأي يمليه العقل لا الهوى . ولكن كيف ؟ كيف يكون صاحب رأي من يقول في العقاد مثل هذا الحكم « لو راجعت حياة العقاد لما وجدته قد أقدم على مهاجمة قوي الا وهو مستند الى من هو أقوى منه ، خاصم عدلي وثروت وهو مستند على سعد وحزب الوفد ، وهاجم النحاس معتمدا على ماهر والنقراشي ، وهاجم هتلر وهو في حمى الانكليز .. » . كلام كما نرى يمكن ان يسقط به فضل كل مجاهد في أي مكان وفي أي عصر لان القوة في الغالب تقابلها قوة أخرى . ثم ما هذه المغالطة ؟ أكان ماهر والنقراشي حينما خرج العقاد على الوفد أقوى من النحاس ؟ وهل كان العقاد وهو ينتصر للديمقراطية في الحرب الثانية ينتصر للقوة المادية ؟ ان قوة المحور لم تكن أقل من قوة الحلفاء ، وقد كانت الحرب سجالا ، بل كان الالمان منتصرين دائما في البداية ، والتاريخ يقول لنا ان العقاد أخرج كتابه ووالى اذاعة رأيه والالمان يواصلون انتصاراتهم في اكثر من ميدان والرأي العام في مصر ينتظر بما يقارب اليقين دخولهم اليها .

ولقد حكى لنا الاستاذ فتحي في كتابه ان العقاد كان يحمل السم في جيبه بعد تضييق الوفد عليه ابان المعركة بينهما ، فلماذا هذا الاستعداد للتضحية ؟ هذا رجل يضع حياته في كف وكرامته في كف حتى اذا اشتد عنت الدنيا وثقلت عليه خسة السفلة كان الموت في متناول يده . هذا الرجل ، أما كان يريحه من ذلك العذاب الواصب مشوار الى دار السفارة البريطانية أو مشوار الى الديوان الملكي أو ترك الامور تجري في أعنتها ؟ ويعلم الاستاذ فتحي أن كتابا كبارا عندنا لم يكتبوا حرفا ضد الصهيونية ، فلحساب من هاجمها العقاد واعتمادا على أي قوة ؟ (وهذا سؤال أيضا نوجهه الى الحانقين على العقاد لتعاونه مع فرانكلين) ، وهاجم العقاد جماعة الاخوان المسلمين حينما كان في مقدورهم أن يقتلوا رئيس الوزراء ، وحارب العقاد الفاشية قبل أن يتنبه الناس لخطرها ، وحارب الملك فؤاد فدفع به الى السجن. أليس في هذا كله يا أستاذ فتحي شيء من القوة أو الشجاعة ؟

وكيف يكون صاحب رأي من يقول هذا الكلام : « وكان للعقاد سبب يدعوه الى مهاجمة وزارة نسيم ، وألا يلتزم بالخط السياسي الذي يرسمه الوفد لمهادنة تلك الوزارة . كان للعقاد صديق هو الاستاذ طاهر الجبلاوي نقل في عهد الوزارة السابقة على الوزارة النسيمية تنكيلا به لوفديته ولصلته بالعقاد ، فلما جاءت الوزارة النسيمية انتظر العقاد أن يعاد صديقه الى القاهرة ولكن نجيب الهلالي وزير المعارف في تلك الوزارة ـ لامر ما ـ لم يعده اليها فاستشاط العقاد غضبا وأطلق على الوزارة عموما وعلى نجيب الهلالي خصوصا حملة عنيفة » .

يعني العقاد ليس بطلا في ذلك الموقف وانما صنع ما صنع اعزازا لصديقه ، (وهذا بالطبع باعث كان يعلمه جيدا الاستاذ فتحي في سنة ١٩٣٥ حينما سعى الى العقاد طمعا في كسب مودته وثقته) ، انه المرض هو الذي يتكلم : لم خلق الله العقاد هكذا قويا شامخا يتحدى ويضرب وينتصر ؟ يقاوم قوى رهيبة يرتعد أمامها البغاث ، اما كان قادرا ـ سبحانه ـ ان لا يجعله استثناء فيريحنا من ارهاق المشاعر السوداء ؟ نعم ان المرض هو الذي يتكلم ليقول ان العقاد لم يكن وطنيا وهو يقذف بالحمم وزارة لا يختلف اثنان في انها كانت ممالئة للانكليز ، ولم يكن صاحب رأي يعتد برأيه وهو يتحدى زعيم اكبر حزب في البلاد ، وعذابه وحمله الموت في جيبه ليس في سبيل مبدأ وفكرة وعقيدة ، انما هو باعث شخصي لو لم يكن لما كان كل ذلك . وليت الاستاذ فتحي اكتفى بتفسيره المعوج لمهاجمة العقاد للوزارة النسيمية ولم يحرف الحقائق . ان العقاد لم يهاجم نجيب الهلالي في عهد الوزارة النسيمية فقط بل هاجمه قبلها مرات لاسباب لا تتعلق قط بشخص العقاد وأشخاص أصدقائه . وفتحي رضوان هنا ينقل نقلا سيئا عن مكرم عبيد في هجومه على العقاد سنة ١٩٣٥ . يقول العقاد من رده على مكرم : « أما انني حملت على وزير المعارف لانه نقل هذين الصديقين الكريمين (الصديق الاخر هو الاستاذ عبد الرحمن صدقي) فالكذب فيه ظاهر .. فأنا أحمل على وزير المعارف منذ كان وكيلا مساعدا للوزارة قبل ست سنوات ، وقد طلبت الغاء وظيفته يوم كنت في مجلس النواب لان الوظيفة زائدة كما ثبت بعد ذلك ولانه نشر الجاسوسية بين الاساتذة والطلاب لاول مرة في تاريخ التعليم .. ولقد كان عقاب وزير المعارف لهذين الصديقين الكريمين انتقاما مني لحملاتي ولم يكن باعث هذه الحملات » .

نعم ، انها « الحالة » ، فاذا وقف العقاد في مطلع شبابه وهو في أسوان في وجه الانكليز وقفة الجريء الكريم وحارب طغيان أذناب الانكليز قيل « حساسية مفرطة » فلا تحسب العقاد هنا جريئا كريما أيها القارىء ، انما هي أعصاب تالفة ، صحيح ان مدير أسوان كان طاغية ولكن له عذره . واذا ذكر العقاد وهو بصدد الحديث عن اجداده ان منهم واحدا عرف بقوة البدن ، وروى انه تصدى لمجرم شرير أعجز رجال الامن زمنا فقبض عليه وسلمه الى البوليس قيل « والعهدة في ذلك على العقاد » أي احترس أيها القارىء فهذه رواية مشكوك فيها ربما اخترعها العقاد ليقال ان في أجداده قوة بدنية وتحديا للشر والاشرار . واذا صحح العقاد بيان لجنة ملنر في سنة ١٩١٩ فكان

لتصحيحه اثر في تنبيه الوعي القومي سيقت هذه الحقيقة الثابتة بشيء من الاحتراس لا معنى له : «يقول عنه مؤرخوه ..» . واذا احب العقاد وهو في الخمسين وكتب شعرا في الحب قيل لم يكن حبا بل كان وهما ، لانه ليس من المعقول أن يكون العقاد ـ والراي فيه انه جامد العاطفة خامد الشعور ـ محبا في الخمسين . واذا أطلق المفتونون بالنازية رصاصهم على العقاد وهو في فلسطين سيق الخبر مغلفا بالاعتذار لهم . واذا هاجم العقاد الملك فؤاد قيل انها مرة واحدة سبق اليها فلا يؤبه لها .

ويمعن « صاحب الراي » في التشويه فيروي عن العقاد ان النقراشي رأى خاله مرة ـ وكان خصوم العقاد يعيرونه بأمه السوداء ـ فدهش النقراشي لانه كان يتوقع أن يكون خال العقاد من اهل السودان ، ثم يعقب فتحي رضوان فيقول : « وتحس في رواية العقاد لهذه الواقعة بانه كان فخورا بان اهل أمه كانوا من الاكراد ذوي الوجوه الشقراء » . وهذه رواية العقاد : « التفت النقراشي الى جانبي فراى شيخا ابيض الوجه أميل الى الشقرة وتوليت التعارف بينهما فحياه النقراشي وهو يقول ضاحكا : عجبا . لقد كنت أقرأ في الكشكول والصحف الشتامة عن « بخيته السودانية » أم عباس العقاد .. وسألني مازحا : لماذا لم تكذب الخبر ؟ قلت : انني لم اكذب اخبارا أكذب من هذه ، فما بالي اكذب نسبتي الى أم سودانية ؟ ليس في الامر ما يوجب البراءة منه والاهتمام بتكذيبه ، فكم انجبت السودانيات من رجال يفخرون بالامهات » . أفي هذا الكلام افتخار ؟ ان العقاد يذكر هذه الحادثة وهو بصدد الحديث عن أمه ليتطرق منها الى الكلام عن أصلها الكردي لا لاحساسه بالفخار ، والا فهل كان يلزم لكي تنتفي فطنة الفخر أن يسقط الكلام عن أصل الام فلا يشار اليه قط ؟!

ان فتحي رضوان يكتب عن العقاد كمن يطلب ثارا . ومع ذلك فها هو ذا يشرع في « انصافه » متطوعا منتظرا الاعتراف بجميل تطوعه . يقول : « ولو كنا مما يفعلون فعل العقاد وينهجون نهجه لاهدرنا كل ما فعل كما أهدر هو جهاد مصطفى كامل الباهر العظيم وآثاره الباقية الخالدة » . اذن فالمسالة كلها انتقام لمصطفى كامل ، لا يتورع عن شيء من أجل شفاء الحزازة . وليس صحيحا ان العقاد أهدر جهاد مصطفى كامل فان الفرق كبير بين الاهدار والنقد . يقول العقاد : « .. لم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين الينا في حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية يومذاك.. وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسي ما لم أكن اعرف ، أستطيع أن أقول ان اختلاف الطبيعة البعيد قد رسم امامي مثالا للامامة المذهبية غير هذا المثال » . اما « الاثار الباقية الخالدة » فوصف من قبيل الترخيص في الكلام ، فان يكون جهاد مصطفى كامل باهرا وعظيما شيء مقبول ، ولكن بأي معنى تكون مجموعة من الخطب الحماسية انتهت بانتهاء زمانها آثارا باقية خالدة ؟

والمس بعد ذلك واضح في كلمات الاستاذ فتحي رضوان ، والمس في ذاته شيء ذميم فما بالك اذا كان ولا وجه له ؟ يمس الاستاذ فتحي بانه لم يهدر كل ما فعل العقاد ، وكانه ابقى شيئا لم يهدره ، فماذا قال وقد شرع في انصافه ، قال كلاما لا يختلف فيه اثنان محصله ان العقاد واسع الاطلاع ، نشيط ، ذو خطر .. أهذا كل ما في الامر ؟ هذا انصاف خير منه الاجحاف . لقد كان افضل وأكرم للاستاذ فتحي أن يدع هذه « الموضوعية » الساذجة التي لن تنفي عنه التحامل ، الموضوعية التي لم يطقها بضعة أسطر فرجع الى ما كان فيه من ازراء على الرجل وهو في معرض تقديره . أهذا هو الانصاف الجدير بالشكر والتقدير ؟

قال تعالى « يمنون عليك أن اسلموا ، قل لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » .

صدق الله العظيم ، ورحم الله العقاد .

القاهرة — الحساني حسن عبد الله

صدر حديثا

بابا همنغواي

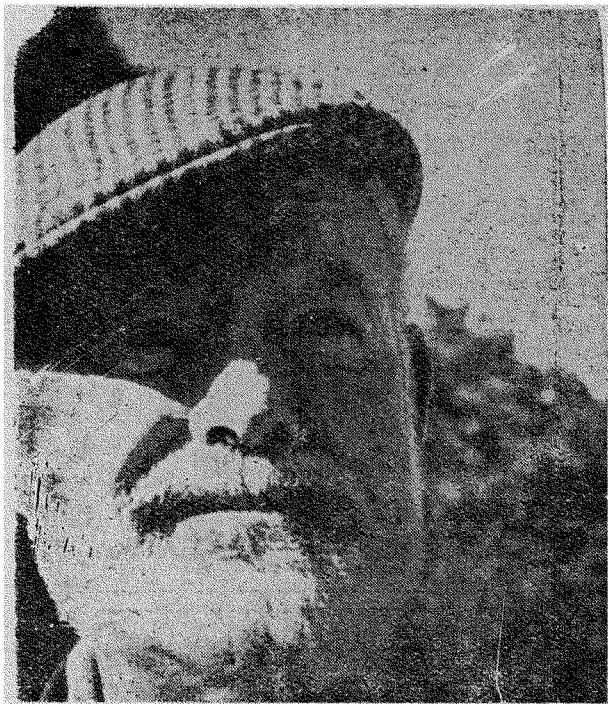

بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياة همنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطا وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب